الحياة العائلية

الأب أنطوان ملكي

إنّ العائلة المسيحيّة في خطرٍ لأنّ الحسَّ العائليّ في خطر، بالرغم من الكلام الكثير في وسائل الإعلام على الاهتمام بالحياة العائليّة. ومثل أغلب الأمراض الاجتماعيّة في أيّامنا، فإنّ مشكلة فساد العائلة لا تُحَلُّ بالتربية وحدها، ولا بالإعلام والبرامج والقوانين، مع كون هذه كلّها عناصرَ بنَّاءة؛ بل وكما هي الحال دائمًا، الشفاء موجودٌ في قلوب الذين يشكّلون العائلة نفسها، والتوبةُ هي كلمة السرّ.

سلوك العائلة الأرثوذكسيّة بطريقةٍ بنّاءةٍ إيجابيّةٍ مُحِبَّةٍ مُعطيةٍ للحياة، هو أمرٌ يتطلّب صلاةً وتصميمًا ونظامًا، لا بل يتطلّب أيضًا موقفًا تبشيريًّا. هذا لأنّ مناخنا الاجتماعيّ بات لا يساعد عائلاتنا الأرثوذكسيّة. إنّ التأمُّل في هذا المناخ المزعج يؤدّي إلى الإحباط واليأس، ما دفع أحد الرُّعاة إلى وصفه بأنّه عاصفةٌ من التجارب، بيئةٌ نسيَت الله أو رفضته. فبيئتنا تقوم على المادّيّة: بدءًا بالمدرسة والعمل، وصولًا إلى الراديو والتلفاز والإنترنت والجرائد والمجلّات، وحتّى جيراننا، هذه البيئة لا تحثُّنا إلّا على النجاح المادّيّ. ما يحرّك الحياة اليوميّة على نحوٍ أساسيّ هو جني المال والسلطة، وتحصيل ما هو أفضل ممّا عند الآخر.

بيئتنا تُشجّع على التنافس والخداع، حتّى صار الناس يسحقون بعضهم بعضًا للحصول على الأفضل بأقلّ ثمنٍ أو بلا ثمن. والمتطلّبات المادّيّة جعلت البشر عبيدًا للتكنولوجيا، وارتفعت كلفة الحياة في السعي إلى الراحة، إلى درجة أنّ العائلات التي لا يعمل فيها الوالدان معًا قليلةٌ جدًّا. لذا، يَجِدُ الأهل والأولاد أنفسهم يجاهدون معًا تحت أحمالٍ ثقيلةٍ من المتطلّبات اليوميّة. الإرهاق والقلق منتشران عمومًا. العائلات تتفكّك، وأغلب الناس يعانون الوحدة. يطلب بعضهم العزاءَ في التلفاز أو التسلية السمعيّة-البصريّة، فيما يسافر بعضهم الآخر، وغيرهم ينغمس في الشهوات الحسّيّة. يأخذ آخرون طريقًا أخرى من الهرب، عن طريق العيش بطريقةٍ زائفة، وآخرون يذهبون أبعد من ذلك إلى الكحول أو المخدّرات. إنّها عواصف من التجارب.

لذلك، إذا كنّا نرغب بصدقٍ في تغيير حياتنا وحياة عائلاتنا، علينا أوّلاً أن نرفض إلقاء اللّوم على غيرنا وأن نتحمّل مسؤوليّتنا. ولكن قبل تحمُّل المسؤوليّة، من الضروريّ استدعاء معونة الربّ. ففي الحقيقة،

نحن لا نمسك بزمام كلّ شيءٍ في حياتنا، ولا نستطيع وحدنا أن نقوم بكلّ شيءٍ أو ننجزه. نحن بحاجةٍ إلى معونة الله. عندما نستدعي الربّ، ندرك كيف قد أُخِذنا بالكذبات المتنوّعة حول ما هو ضروريّ في الحياة. إنّ هذه النقطة المحوريّة هي نقطة التوبة، حيث نبدأ بتحويل المدّ الذي كان يدفعنا أو يجرُّنا أو يقذف بنا، ونفهم أنّنا لسنا قباطنة أرواحِنا ولا ملّاحي أقدارنا. حياتنا كلُّها مترابطةٌ ضمنيًّا، وما يفعله كلٌّ منا وما هو عليه، يؤثّر في كلّ شيءٍ وفي كلّ شخصٍ في كلّ مكان. ما إن نبدأ بالنظر إلى ما وراء خداع المادّيّة وحبّ الكسب والاستهلاك، حتّى نبدأ بإدراك أنّنا فعلاً لا نحتاج إلى كلّ ما يقولون لنا إنَّه ضرورة، وأنّنا نستطيع العيش سعداء بأقلّ من هذا بكثير، وأنّنا لسنا ملزَمين بالعَيشِ موجَّهين بالكسب المستمرّ، وأنّنا لسنا بأيّ شكلٍ مجرَّد أناسٍ مخلوقين للشراء. هذا النوع من الإدراك ضروريّ، لأنّه جذر التوبة وأساس التغيُّر نحو الأفضل في حياة الشخص والعائلة والرعيّة.

إلى أين يقودنا هذا في عائلاتنا الأرثوذكسيّة؟ إلى التوقُّف عن معاملة أحدنا الآخر، في عائلاتنا وفي رعايانا، وكأنّنا سِلَع. البشر هم كالأيقونات: قيمتهم هي في مَن هم، وليس في ما هم عليه، أو كم يعرفون، أو مَن يعرفون، أو كم هم جذّابون، أو كم يُحصِّلون. لهذا، نحتاج إلى أن نبدأ مجددًّا في معاملة أحدنا الآخر بمحبّةٍ لطيفةٍ صبورةٍ حاضنة، كمثل أزهارٍ ونباتاتٍ رقيقةٍ في حديقة. هذا ما شجّعته الأرثوذكسيّة دائمًا؛ وثمّة قصصٌ كثيرةٌ عن أشخاصٍ أتقياء عامَلوا البشع والمريض والمحروم والمشوَّه كأزهارٍ جميلةٍ وظهوراتٍ للمسيح.

تحتاج العائلات الأرثوذكسيّة إلى أن تتجذّر في محبّة المسيح، لتكتسب الحياة والقوّة لمقاومة مدّ المادّيّة. وهذا يكون عن طريق الانتباه الثابت الذي يتطلّب يقظة. لذا، على الأهل أن يبذلوا جهودًا حقيقيّةً ليقودوا أولادهم بالمثال، وليُساعدوهم من خلال محبّتهم للمسيح والقدّيسين، فيَجدوا المحبّة والقوّة في الحياة لمواجهة كلّ صعوبة بالرجاء، وهزيمة الإغراءات، وقهر الخطيئة، والعيش في حرّيّة المسيح.

إلّا أنّ هذا لا يكون بلا صلاة ومن دون قراءة الكتاب المقدّس يوميًّا. لذا من الضروريّ تعزيز العادات المسيحيّة الحسَنة التي تعكس حقيقة أنّ إيماننا الأرثوذكسيّ يلامس أوجه حياتنا كلّها: مباركة الطعام وشكر الله عليه، والاشتراك في وجبةٍ واحدةٍ يوميًّا على الأقلّ، ومباركة العائلة عند الخروج من البيت، والوقوف للصلاة وجيزًا قبل السفر، ومباركة الله عند النهوض من النوم وعند الذهاب إلى الفراش، وقبل العمل أو اللعب

أو مباشرة أيّ مشروع. بالاتّكال على هذه البركة نستطيع أن ننمو. وبهذه البركة نستطيع العيش في محبّة المسيح والمشاركة فيها. تنمو المحبّة وتزدهر عندما نكون يقظين روحيًّا. يعلّم الأهل أولادَهم اليقظة بالمثال، مبتعدين عن الخصومة والدَّينونة، منتبهين من الروح الانتقاديّة، طالبين من الله أن يضع حارسًا على أفواههم ويوجّه قلوبهم بعيدًا عن الأفكار الرديئة.

إذا كنا يقظين، أفرادًا وعائلات، إذا كنا أُمناء، وإذا ثابرنا متشبّثين بيَد المسيح مخلّصنا، فنَظير الرسول بطرس، لن تهزمنا عواصف التجارب، بل سنُبحر بأمانٍ في سفينة الكنيسة إلى ميناء الأمان، حيث الفرح السماويّ، فنُخلّص نفوسنا ونفوس أفراد عائلاتنا ومجتمعنا.